

دراسات غربية في عداد الخرافات^١

في خطاب من الدكتور «عبد الكريم دهينة» النفساني ... يقول الدكتور بروايته:

إنني قرأت حديثاً للدكتورة — روث دارون — تقول فيه: إنه سوف يأتي الوقت الذي يأخذ كل صديق من صديقه نقطة دم عندما يودعه، ويستعمل هذا الأثر الدموي محطة إرسال كلما أراد أن يخاطبه ... وقال عالم آخر هو الدكتور ألكسندر كانون: إن التفاعل مستمر بين الفكرة والجسم، وإنه مصدر اهتزازات أثرية يمكن قراءتها بألة السيكموجراف ... أو بموهبة الجلاء البصري. ويقول عالم آخر هو السير شارلس بل منذ مائة عام: إن الأفكار تنفعل مع الأعصاب وتستمد ما قدر لها من خير أو شر من تموجات العقل الكوني العام، فترسم في الكف رسومات تدل على ذلك ... ولن يبقى بعد هذه الكشوف الأثرية حديث حول الغيب وحول اللاشعور والميتافيزيقا، فكلها ستصبح معلومة ملموسة طبيعية.

وهذه يا سيدي مشكلتي، وليست روحية بقدر ما هي أثرية، وإن كنت أعتقد بأن الروح جزء من الأثير، وأنه لولا دراسة الأثير ما عُرف المذيع ولا المرناة — التلفزيون — ولا أمكن البطل الروسي جاجارين أن يلمس السماء مجتازاً شهبها وحرسها، وبدراسة الأثير أيضاً سنحل مشكلة استحضار الأرواح وتجسدها وتطبيبتها لبعض المرضى، والزواج منها أيضاً كما يقال إن

^١ الأخبار: ٢١/٦/١٩٦١.

بلقيس كانت أمها جنية ... وبدراسة الأثير كذلك سنحل مشكلة هذه العلوم التي أخذت لقب الفراسة زمنًا طويلاً، وعُد الكلام فيها هجوماً على الغيب الذي تفرد به الله — سبحانه وتعالى.

... وهذه هي قصة الأثر والأثير، فهل أنت معي في هذا العالم — الأثيري — الذي أحلم به؟ إن لم تكن معي، فإني أستلهم روحك الطاهرة، ولن يرعبني منها صولجانها بقدر ما أشغف بمناجاتها؟

إن الدكتور «عبد الكريم دهينة» يتكلم بحق عن دراسات غريبة لا تزال عند الأكثرين محسوبة — كما قال — في عداد الخرافات، ولكنها تتراوح بين الدراسات الشبيهة بالنفسية parapsychic وبين دراسات العلاج النفساني psychiatry.

فهذه المباحث تدخل في حدود التجارب العلمية، حين يجتهد العلماء النفسيون في امتحان العلاقات بين العقول على البعد لتقرير الحقيقة عن الرسائل «النفسية»، التي يقال إنها تتبادل أحياناً بين بعض الناس، ولا يسهل تفسيرها بالانتقال الحسي أو بالتنويم المغناطيسي من قريب أو من بعيد. وموضع السؤال في هذه الدراسات هو هل هناك وسيلة لنقل فكرة من عقل إلى عقل، بغير وساطة الحواس أو بغير وساطة الإيحاء المغناطيسي، الذي تفسره الاتصالات الحسية على نحو من الأنحاء؟ وهل هناك استعداد خاص عند بعض الناس لما يسمونه الإدراك «فوق الحسي»، أو إدراك ما وراء الحسي، ويطلقون عليه بالإنجليزية Extrasensory Perception ويختصرونه بحروف E. S. P. ونقول إن هذه الدراسات دخلت فعلاً في حدود البحث العلمي؛ لأن القائمين بها اعتمدوا على تجارب المشاهدة، والإعادة لنفي كل شبهة ترد على ذهن العالم المحقق في هذه الأحوال. وغاية ما وصل إليه أصحاب هذه التجارب أن وجود الصلات غير الحسية بين الأفكار ليس بمستحيل، وأن هناك نسبة مئوية لهذه الصلات، لم يتمكن العلماء من تعليلها بالحس، وإن كان من الجائز أن يهدوا إلى تعليلها الحسي بعد حين. ويقال بعبارة أخرى إن تفسيرها بالمصادفة لا يزال أصعب من تفسيرها بوجود الصلات بين الأفكار بالوسائل الحسية ووسائل الإيحاء.

وكل ما جاوز هذا الحد من الفرض والظن فهو — في رأي الأكثرين — لاحق بالعوارض النفسية، التي تدل على انحراف الحس والفكر، وتعالج على هذا الاعتبار.

واعتقادي في هذه الفروض، أو هذه الظنون، أنها لا تزال من موضوعات القصص العلمية، التي يعمل فيها الخيال ويتخلص فيها الذهن من الحرج باتفاق بين الكُتاب والقراء، فلا يقرؤها القارئ وهو مصدق لكل ما فيها من الغرائب والنبوءات، ولا يزال يحسبها من قبيل التوقع الذي قد يسبق الواقع، وقد ينتهي على الورق كما بدأ عليه. ومن هذه الخيالات الممتعة — فيما يتعلق بالآثار «الدموية» التي أشار إليها السيد دهينة — أن الكاتب القصصي المشهور جورج أوريل تخيل أن الموجات الكهربائية في دم الإنسان تختلف باختلاف الأجناس البشرية، وأنه يجوز على هذا أن تخترع غداً قذيفة تهلك أبناء بعض الأمم ولا تهلك الجيوش التي تستخدم القذيفة؛ لأن هذه الجيوش تحتمي منها بموجات كهربية في دماها، تكفل لها المناعة من الإصابة. ومثل هذا التخيل هو الذي نسميه «تخيلاً برخصة» من العلم على «مسئولية» المتخيلين.

أما ما وراء ذلك من أحاديث النقطة الدموية التي «تستعمل كمحطة إرسال»، فهي خيال منطلق لا يرتبط بالعلم ولا بالتجربة ولا بالواقع، ويجوز أن يتخيلها المتخيل قبل اكتشاف الكهرباء وقبل التحدث عن محطات الإرسال ومحطات الوصول؛ لأن الكهرباء لا تقربها قيد شعرة من أوهام التصور إلى حيز البحث والاحتمال.